مذكرات محجّبة سابقا

أ. **محمد علي الأتاسي**(*)

إنّ المناقشات التي دارت رحاها على صفحات الجرائد وشاشات التلفزة العربية في شأن الحجاب وموقف الحكومة الفرنسية منه، قد نزعت في معظمها إلى معالجة الموضـوع من الجانب النظري والفقهي، وأفردت مساحات واسعة للجدل الفلسفي حـول العلمانيـة والدين وحقوق الأقليات المسلمة في أوروبا. الصوت الأهم الذي بقي غائبا عـن هـذه المناقشات، رغم أنه المعني الأول بالمسألة، كان صوت المرأة المسلمة، التـي اجتمـع مؤيدو الحجاب ومعارضوه للكلام نيابة عنها.

وعلى امتداد هاتين الصفحتين، تروي فتاة مسلمة من بيئة مدنية محافظـة وميسـورة، كيف نزعت الحجاب بملء إرادتها بعدما كانت ارتدته. والشهادة هذه، محصـلة حـوار طويل معها. وإذا كانت صاحبة هذه الشهادة قد فضلت إبقاء اسمها طيّ الكتمان تجنبـا للموانع العائلية والاجتماعية، فعسى أن يكون في ذلك حجة تسمح للقراء بأن يعتبروا أنّ هذه الشهادة يمكن أن تقع في أي من المدن العربية. وقد جاءت فكرة نشر هذه الشـهادة على إثر متابعتي إحدى حلقات برنامج »الاتجاه المعاكس« عن الحجاب والتي جمعـت المفكر والأستاذ في جامعة السوربون محمد أركون إلى الداعيـة الإسـلامي وأسـتاذ الأزهر أبرهيم الخولي. إذ بينت تلك الحلقة مأزق الفكر الإسلامي المنفتح والأكـاديمي وعجزه عن إنتاج

- كاتب من سوريا.
- صدر هذا المقال في الملحق الثقافي لجريدة النهار اللبنانية بتاريخ 2004/2/15 وتمّ الاتّفاق مع كاتبه على إعادة نشره.

لغة قادرة على مخاطبة الجمهور الإسلامي الواسع. ففي حين يملك الدعاة الإسـلاميون قدرة هائلة على الحشد والتعبئة من خلال تلاعبهم بالرموز الإسلامية وتجييـرهم كمّـاً هائلاً من الأفكار المبسطة والمجّزأة عن الإسلام، والتي تجد لنفسها صدى واسـعا فـي المخيلة الجمعية للمسلمين. إن هذه الأفكار والصياغات خلقت لنفسها خلال عهود مـن العمل الدعوي حاضنات اجتماعية ممتدة في أعماق المجتمعات العربية، فـي حـين لا يزال الفكر التنويري عاجزاً عن إعادة إنتاج نفسه بما يسمح له بالوصول إلـى فئـات أوسع من الناس.

أهمية هذه الشهادة تنبع من فكرة بسيطة مفادها أن الجانب الفلسفي والفقهي في النقاش، في شأن الدين والحجاب، يجب ألاّ يصرف الأنظار عن رؤية الفكرة الدينية في جانبهـا الأشمل والقائم على الممارسة اليومية والاقتناع الشخصـي والسـيرورة الاجتماعيـة. إعطاء الحق في الكلام لفتاة مسلمة نزعت الحجاب بملء إرادتها، هو تذكير بوجود هذه الأقلية داخل مجتمعاتنا رغم تغييبها عن النقاش العام بفعـل تواطـؤ وسـائل الإعـلام المسيطرة، وفي مقدّمتها الفضائيات العربية.

"كنت في الثانية والعشرين من عمري عندما بدأت قصتي مع الحجاب. لا أتذكر كيـف اتخذت قرار التحجب. كل ما أذكره أن ذلك حصل سريعاً سريعا. ثم أمضـيتُ أربـع سنوات ونصف سنة قبل أن أقرر نزعه.

في البداية ابتعدتُ شيئا فشيئا عن لبس الثياب الكاشفة وعن الذهاب إلى المسابح وعـن المشاركة في الحفلات المختلطة. كنتُ منذ الثانية عشرة مـن عمـري أواظـب علـى الصلاة، وكنتُ مقتنعة بأن الحجاب فرض ديني، وإن كنت غير قادرة على التزامه فـي البداية. فقد كانت مرحلة بحث عن الذات، ولم أكن أعرف ماذا أريد من الـدنيا. كنـت أشعر أني أبحث عن شيء مفقود في حياتي. أذكر أن حادثة جرت لي في تلـك الفتـرة ولا أدري مدى تأثيرها على قراري بالتحجب. فقد توفي أحد أعمامي وقد رأيته ميتا بأم عيني مما أحدث جرحاً كبيراً في قلبي.

فخلال مراسم العزاء، شهد البيت حالاً مأساويّة وخيم عليه جوّ ديني تخلّلتـه صـلوات متتابعة. لا أدري ما الذي دفعني أثناء ذلك إلى أن أضع غطاء الحداد

الأبيض على رأسي طوال مدة العزاء. أذكر أني خرجتُ بين الناس وقد وضعتُ علـى رأسي الغطاء الأبيض، لأرى كيف يكون شعوري! بعد انقضاء فترة العزاء بأسبوعين، استيقظت لأقول للجميع وسط ذهولهم بأني أريد التحجب. وفي اليـوم نفسـه قصـدتُ السوق لأشتري أغطية عدة للرأس. وفي اليوم التالي تحضرت للذهاب إلى الجامعة وقد أخذت الحجاب إلى السيارة وبقيت جالسة فيها نصف ساعة. ثم رميتـه علـى المقعـد الخلفي واتجهت إلى الجامعة حاسرة الرأس. إلاّ أني لم اشعر بالراحة. في اليوم الثالث، خرجت من المنزل إلى الجامعة وأنا مرتدية غطاء الرأس. وهكذا حسمتُ مسألة ارتدائي الحجاب وبدأت قصتي معه.

أوّل المشوار، ابتعدتُ عن الأمكنة التي قد ألتقي فيها أحد معارفي. أول الذين رأيـتهم، شابان يصغرانني بسنتين، وكان تعليقهما مريحا: "مبروك. كتير حلو عليـك". صـديقة أخرى التقيتها في اليوم نفسه وكان تعليقها أكثر سلبية. قالت لي وهي تضـحك: "شـو عامله بحالك مثل أهل الريف والقرى. شو تخلفتي؟".

ثم استمرت التعليقات في الفترة الأولى بين مرحّبة ومستهجنة. واحدة قالت: "شو عملتِ بحالك. دفنتِ نفسك حية ولن تجدي عريساً بعد اليوم".

صديقاتي المقربات قلن لي : "أنت حرة وهذا قرارك وستظلين صديقتنا".

هناك من أيدني بشدة وبارك لي حجابي. لم يعارض والدي القرار ولم يؤيده فـي تلـك الفترة، لكنه قال لي: بابا، فكّري جيدا في الموضوع، فالحجاب مبدأ ومن الصعب علـى الفتاة أن تتراجع عنه بعد ذلك في مواجهة الناس.

كانت عائلتنا الموسعة بالكاد تخلو من امرأة محجبة، حتى أنّ بنات إحدى عماتي غيـر المتحجبات سرعان ما تبعنني والتزمن الحجاب. أما عائلتنا الصغيرة فلم تكـن شـديدة التدين، ولا أمي كانت ترتدي الحجاب.

في بداية تحجبي اعتبرتُ الحجاب فرضاً إلهياً وواجباً. كنتُ أعتبر العـذاب والمعانـاة امتحاناً لإيماني وأنّ ذلك سيكسبني أجراً ويجعلني أتجاوز المشكلة.

لكني أحسستُ في ما بعد بأني مرهقةٌ حقاً ومتعبة، وبأني أعيش صراعاً دائماً مع الذات.

دروس الدين

جاء قراري التحجب قبل أن أتابع أيا من دروس الدين. في مرحلة لاحقة قيـل لـي إن هناك دروساً دينية للنساء تقام في المنازل، فاستعلمتُ عن العنوان مـن صـديقة لـي وذهبتُ لأرى. هناك جرت عملية التعارف وبدأت قصتي. في الفتـرة الأولـى، كنـت أجلس في المقاعد الأخيرة من الغرفة، مستمعة، من دون أن أشارك في النقاش. كانـت الدروس شيئاً مهماً وجميلا بالنسبة إليّ، إذ أخرجتني من عزلتي وجعلتني أتعرف إلـى فتيات متحجباب يخضن التجربة نفسها. لم أعد أشعر بالوحدة بعدما عثرتُ على ما كنتُ أبحث عنه.

في الدروس العامة كنا نلاحظ أن بعض الفتيات يعدن محجبات بعد فترة من مـواظبتهن على الدوام. أما في "ليلة القدر" فكانت هناك نسبة كبيرة من الفتيـات اللـواتي يقـرّرن وضع الحجاب. وكان ذلك يجري وفق طقوس معينة، إذ كنا ننظم وليمة إفطار عـامرة ونقيم الصلوات طوال الليل إلى أن تأتي الأستاذة المشرفة التي يسمّونها الآنسة ومعهـا رزمة من أغطية الرأس الجديدة لتلبية طلب أي فتاة تقرر ارتداء الحجاب في تلك الليلة المباركة.

تبدأ الآنسة بالكلام، وفجأةً تفصح إحدى الفتيات عن رغبتهـا فـي التحجـب، فتتـولى مساعدات الآنسة دعوتها إلى الوقوف في وسط الحلقة ليوضع الحجاب علـى رأسـها وسط الزغاريد والأناشيد وضرب الدفوف. وغالبا ما كانت الفتاة تبكي تأثراً ويشـاركها بعض الحضور بكاءها وخصوصا الفتيات اللواتي لم يتحجبن بعد. وفي أحيـان، تبكـي الآنسة وتبارك المتحجبة الجديدة وتدعو الله أن يثبتها على قرارهـا وأن يهـدي بقيـة الفتيات، مؤكدةً أنّ دعاء الفتاة المحجبة سيكون مستجاباً مدّة أربعين يوما وستكون ذنوبها السابقة مغفورة كلها.

ثمّ تتولى الآنسة دعوة الفتاة المتحجبة لتروي أمام الحضور تجربتها وشعورها الجديد.

أنا نفسي، كنتُ أبكي أحياناً، لذا لا أريد أن يؤخذ كلامي هذا بمثابة استهزاء.

في الدروس الخصوصية كانت الأستاذة المشرفة لا تكبرنا سناً بكثير، فهي فـي حـدود الثلاثين من العمر، وكانت مثلنا طالبة جامعية تحجبت حديثاً. وكانت تالياً قريبـة منـا وقادرة على الإصغاء إلينا وتفهم مشكلاتنا. كنا نلجأ إليها لنتحادث معها في أمور شـتى تخص حياتنا.

وبعد أن نكون أنهينا ما يُسمّى مرحلة فقه العبادات، تعلمنا الآنسة بضرورة الانتقال إلى مرحلة متقدمة تتولى المسؤولية فيها آنسة من مستوى أعلى. يومها شعرت أننا وقعنا في فخ وأن الآنسة التي اعتبرناها صديقة فعلية، قد تخلت عنا ببساطة. أما الآنسة الجديـدة فقد تم تخويفنا من مكانتها وخصوصاً عندما طلبت منا الآنسة السابقة أن نتعامـل مـع خليفتها باحترام كبير، وأن لا نتكلم في حضرتها، وأن نقف كلما دخلت الغرفـة، وأن لا نجلس قبل جلوسها. في المناسبة، فإن لون حجاب كل آنسة يدل علـى مكانتهـا، مـن الأبيض أولاً مرورا بالأزرق الفاتح فالكحلي وصولا إلى الأسود.

تحت الجلباب الطويل

في المحصلة، وبعد درسين أو ثلاثة خلال هذه المرحلة المتقدمة، قالت الآنسة الجديـدة إن الفتاة التي تريد إكمال الدروس معها، عليها أن تلبس الجلباب الطويل. معظم الفتيات وافقن، أما أنا فتوقفت عن متابعة الدروس الخاصة. في البداية، حاولت الآنسة السـابقة إقناعي بالعزوف عن قراري، لكن بلا جدوى. وفي فترة لاحقة عرضت علـيّ إحـدى الآنسات أن أشاركها إعطاء دروس خاصة لمجموعة من الفتيات لأنّي أمثـل نموذجـاً يتقاسمن معه الخلفية الاجتماعية نفسها، فحضرت درسين ثم انسحبت من جديد.

وبسبب حاجتي في تلك الفترة إلى سماع "كلمتين" عن الله من دون التزامات، فقد عـدتُ مجدداً إلى الدروس العامة الأساسية. لكن تمّ إفهامي بأن الآنسة المسؤولة لا ترغب في ذلك، لأنّي تعديت منذ سنتين مرحلة الدروس العامة. بعد فترة، تعرفتُ إلـى مجموعـة أخرى من الفتيات، على صلة بفئة ثانية من الآنسات، لكني سرعان ما اكتشفت أن تلك الجماعات كلها تدور في فلك واحد، فتوقفتُ نهائياً عن متابعة الدروس.

أستطيع اليوم، التأكيد أن الأسلوب الذي يستخدمنه للوصول إلى دواخل كل منـا، هـو غاية في الدهاء. ومع أني كنت أعتبر نفسي ذكية، فقد استطعن أن يغسلن دماغي، وأن يقنعنني بأمور كثيرة، لم أكن أعتقد يوما أن من الممكن أن أقتنع بهـا، من مثل الامتناع عن مصافحة الرجال وعدم سماع الموسيقى ونتف الحواجب.

معاناة

في الأساس، لقد دفعني إلى التفكير في نزع الحجاب، إدراكي المتزايد أن الأمور التي يراد فرضها على المرأة بالتلازم مع الحجاب، لا تتوافق مع اقتناعاتي الشخصية في شأن إنسانية المرأة وحريتها ودورها في المجتمع.

كان هناك أمور أؤمن بها وأحب ممارستها. لكن الصورة الاجتماعية للمرأة المحجبة كانت في تناقض مستمر مع تصرفات محددة، كالاختلاط بالشبان ونسج صداقات معهم، والاستماع إلى الموسيقى والخروج إلى المطاعم والأماكن العامة في رفقة الأصدقاء.

في بداية حجابي، كنت أعيش ما يشبه حالة غسل الدماغ، وقد امتنعتُ بإرادتي عن هذه الممارسات كلها. ثم أخذت اقتناعاتي تتغير فلم أعد أرى ما يعيب في مثل تلك التصرفات، وإن كانت لا تتلاءم مع صورة المرأة المحجبة في المجتمع.

أعتقد أن تلك الجماعات تخلت عن جوهر الإيمان وصارت مهتمة بصغائر الأمور من مثل: ضرورة أن تطأ الفتاة البيت دائما، بالقدم اليمنى، وأن تدخل إلى المرحاض بالقدم اليسرى، وأن لا تطيل أظافرها لأن الشيطان يتربى على الأظافر، وأن تكتفي بتبادل عبارات من مثل صباح الخير وصباح النور مع الرجال إذا لم يكن الموضوع يتعلق بمشاغل العمل....الخ.

في البداية اعتبرتُ هذه الأمور بمثابة مسلّمات، فلم أعد أخرج إلى الأمكنة المختلطة، ولم أعد أشارك في الأعراس، حتى أني توقفت عن سماع الأغاني. ثم رحت أخرج في كل فترة بقرارات، من مثل عدم مصافحة الرجال أو عدم ارتداء البنطال. ومع ذلك كنت أفشل في تطبيقها.

أذكر مرة أني رافقتُ بعض الصديقات في سيارة تصدح من مذياعها أغان جميلة، وأني ارتبكت عند سماعها، وقد تملكني صراع رهيب مع ذاتي فرحت أقول لنفسي: حرام أن تسمعي هذه الأغاني. ثم أعود فجأة إلى رشدي لأردد: إنها فعلا ألحان جميلة وممتعة، فهل من المعقول أن أخاف على إيماني لأني أستمع إلى الأغاني.

لقد عشتُ هذا الصراع في كل نواحي الحياة. في البداية تجاهلتُ في داخلي الصوتَ الذي يدفعني إلى التصرف بتلقائية وعفوية، فكنتُ أروح أضغط على

نفسي باسم الحرام والعيب، وأقنعها بأن الله يمتحنني، وبأنه سيكافئني في النهاية.
لم تستمر تلك الحال طويلا، إذ سرعان ما أدركتُ بعقلي أن هذه العلاقة الجامدة مع الله تتناقض مع كل شيء منطقي بالنسبة إليّ، وأني أحرم نفسي أشياء هي في قرارة نفسي غاية في الطبيعية. ففي العمل مثلاً، لم أستطع أن ألغي الجانب الإنساني والاجتماعي في علاقتي مع زملائي ورأيتني أتكلم تلقائيا بودّ معهم. لم أفهم لماذا كان يتوجب علـي أن أظلّ مكشرة في وجوههم.
كنت في أحيان، أدخل في نقاش مهمّ وممتع مع أحد الرجال في العمل، لكنّي سرعان ما كنت أتوقف عن ذلك وأمتنع عن الضحك أو الكلام الزائد، واضعةً حداً للنقاش خوف أن يكوّن أحدهم فكرة خاطئة عني. مع أني كنت في داخلي أتمنـى لـو يسـتمر الحـوار لمعرفتي أني لا أرتكب أي خطأ. حتى في أمور بسيطة كنت أخجل فـي البدايـة مـن التدخين في الأماكن العامة، لأن الصورة التي تكوّنت لدي عن الفتاة المحجبة لا تتوافق مع التدخين. غير أني تخليت عن ذلك. وهكذا كانت الحال أيضاً فـي شـأن مصـافحة الرجال التي لم أعد أرى فيها ما يعيب، وإن كانت غير مقبولة اجتماعيـا مـن الفتـاة المتحجبة.
أذكر مرّة أنه كان من المفترض في إطار عملـي أن أوزّع شـهادات التخـرج علـى المشاركين في ندوة تدريبية، وكيف أن العديد من المشاركين راح يتردد في مصـافحتي كوني محجبة. في المحصلة، ألصقتْ بي هوية محددة، رغبتُ بذلك أم لم أرغب، مفادها أني فتاة إسلامية وأني شئت أم أبيت سأظل حاملةً لرسالة معينة ولدور محـدّد مـرتبط بصورة الفتاة المحجبة في المجتمع.
في الفترة الأخيرة نشأت حالٌ من عدم الانسجام بين شخصيتي وحجابي، وكلمـا كنـت أتحضر للخروج صباحا من المنزل، أتذكر فجأةً تلك القطعة من القمـاش التـي مـن المفترض أن أرتديها قبل خروجي.
في السنة الأخيرة كنتُ أشعر إلى حدّ غير معقول بوطأة تلك القطعة من القماش علـى رأسي. فلم أعد مرتاحة داخليا بل أحسست بأن هناك شيئاً ما خاطئاً في المعادلة : أنـا بحجاب وأنا بدون حجاب.

خلال فترة معينة من حياتي محجبةً، كنت أسمع باستمرار تعليقات، مـن مثـل كيـف تحجبتِ، وخصوصا عندما يتعرف الناس إلى شخصيتي وخلفيتي المهنية. ثـم أصـبح السؤال: "شو جاب لجاب"، ذلك أن أسلوب حياتي لم يعد يتوافق أبدا مع نظـرة النـاس المحافظة إلى الفتاة المحجبة.

كنت أجيب عن مثل هذه الأسئلة بمنطق أن على الفتاة أن تمارس حياتها بحريـة مـع الحجاب لأن الدين لا يمنعها من ذلك. ثم صرت أشعر بالإرباك لأن أجوبتي لـم تعـد مقنعة للناس. فأحسست كأني أخدع نفسي، لأني أتكلم عن شيء لست مقتنعة به تمامـا، ولا متصالحة فيه مع ذاتي.

كان بعضهم يقول لي إن الحجاب يحجب عن الحرام، لكني أدركت في الفترة الأخيـرة أن الحجاب يحجبني فعلا عن حريتي وعن مشاركتي الفاعلة في المجتمع. ثم تبيّن لـي أنه ليس هناك الكثير من النساء المتحجبات اللواتي برزن في المجتمع أو اضطلعن بدور فكري أو سياسي أو اقتصادي مهم.

نزع الحجاب

عندما فكرتُ في نزع حجابي، تملكني خوف شديد من عقاب الله. ثم توصلت إلى اقتناع مفاده أن الله ليس هو من يقف في طريقي، بل هو حجابي، ممّا أعطاني قوة سمحت لي في ما بعد أن أتخلى عنه. ثم ارتبط الخوف لدي بالتحسـب مـن ردود فعـل العائلـة الصغيرة والعائلة الممتدة على طول المجتمع.

ثم راح الشك ينتابني ويتآكلني حيال صواب التحجب أو عدمه. حاولت أن أستمع إلـى وجهات نظر بعض الناس المقربين. كان أبي على الدوام مرنا في شؤون الدين، وكانت لديه علاقة خاصة مع الله. ولطالما كان يردّد على مسامعي أن الله أكبر من كـل هـذه التفاصيل التي تشغلني وأنه أكثر رحمة من كل المتزمتين حولي. كانت آراؤه تستفزني كثيرا لأنّ أمور الدين كانت مقدسة بالنسبة إليّ، ويجب عدم التفكير فيها.

وعندما أعدتُ التفكير في خياراتي كانت آراء أبي هي أول ما استذكرته واستعنت بـه. كان موقفه في غاية الأهمية. فرغم أنه كان ضدّ أن أنزع الحجاب، وقف إلـى جـانبي وأيد حقي في حرية الاختيار وقال لي إنني سأظل ابنته وسأظل

جزءا من العائلة. لكنه أحس مع ذلك بأن هناك شيئاً ما قد اهتز حقاً، وكان مهمومًا جدا حيال ردود فعل المجتمع والعائلة.

من جهتي أيضا ظللتُ خائفةً من ردّ فعل العائلة حتى اللحظة الأخيرة، لأنـي أدركـتُ وفق أي منطلق سيعالجون الموضوع بعدما قاسمتهم موضوع التحجب لفتـرة طويلـة. ويمكن تلخيص هذا المنطق بالعبارة الآتية: الحجاب واجب على المرأة لأنه فرض إلهي لا نقاش فيه، وهو يحميها ويمنع عنها الأذى ويسمح لها بحمل الرسالة الإسلامية.

كانت ردّة فعل بنات عمتي متوقعة بعدما علمن بنزعي الحجاب. إحداهن بكـت عبـر الهاتف وقالت لي إنني نوارة العائلة فكيف أفعل ما أفعله بنفسي. وذكّرتني بأنها تحجبت اقتداء بي!

ابنة عمّ أخرى بعثت لي عبر الإنترنت رسائل دينية. وهكذا كانت الحـال مـع بعـض صديقاتي المقربات، إذ شرعن في البكاء عندما شاهدنني بدون حجاب ودعون لي بـأن يهديني الله ورحن يردّدن أن الحجاب نوع من أنواع الجهاد وهو امتحان للنفس. لكن كل محاولاتهن لثنيي عن قراري باءت بالفشل.

أحد أعمامي الأكثر قربا مني، انزعج كثيرا ولم يعد ينام الليل، وحاول مرة أن يفاتحني بالأمر قائلا إنني لا أعي أبعاد هذا القرار وتأثيراته على الناس وعلى العائلـة. أجبتـه: أرجوك، أنا لا يهمني ما يقوله الناس وليس لهم أي علاقة بقراري لأنه قرار شخصي. أما في خصوص العائلة فهذه هي مشكلتها وليست مشكلتي.

حاولت مرة أن أجس نبض صديقة كانت مقربة جدا. تفهمت موقفي بدايةً وأوضحت أن من الطبيعي أن يمر المرء بأزمة في فترة معينة فيشكك في وجوده وعلاقته بالله وفـي الكثير من قراراته. لكنها كانت واضحة تماما عندما دعتني إلى إبقاء الحجاب مؤكدةً أن الله سيساعدني وأن حجابي وإيماني سيخرجاني من المحنة التي أنا فيها.

لم يحرك هذا المنطق في داخلي شيئا ممّا كنت أبحث عنه. وقد طرحتُ المسـألة علـى صديق فأجاب: "الأمر لا يحتاج إلى الكثير من الجدل، فإما أن تفكي

الحجاب وإما أن تستمري في وضعه". قال ذلك ببساطة صدمتني في البداية لأني كنـت أرى في هذا النوع من القرارات كل الجدية والأهمية. بساطة معالجته للقضية سـمحت لي بإدراك أن الأمر هو في الآن نفسه كبير وصغير، وأنه يتوقف على طريقة تعـاملي معه. وقد تناقشت حديثاً مع صديقة تخلت عن الحجاب لكنها تختلف عني لجهـة عـدم اقتناعها منذ البداية به، مع أنها التزمته خلال سنتين بسبب وفاة والدتها، في حين كنـت مقتنعة في السنتين الأوليين وأناقش الناس وأستميت في الدفاع عن حجابي. وقد شرحت لي الصديقة شعورها يوم فكت حجابها والصراع الداخلي الذي عاشته قبل الإقدام علـى ذلك. تكلّمت معها قبيل نزعي الحجاب وكنت أحس أنها لسان حالي. ثم تكلمـت معهـا خلال الأيام الأولى لسفوري والمشكلات التي أعانيها، وقد ساعدتني المناقشات كثيراً في تجاوز الصعوبات بسبب وجود إنسانة تتفهم ما أعيشه. والأهمّ كان إحساسنا أننا لم نعـد نضحك لا على أنفسنا ولا على الناس. لقد أحسستُ أني تحررتُ مـن صـورة كنـتُ أفرضها على نفسي وعلى الناس، ولا تعكس حقيقة شخصيتي.

قصة طريفة ومعبرة حدثت معي بعدما تخليت عن الحجاب. كانت لي صديقة متدينـة، متزوجة ولها ولدان. كلما التقينا كانت تعلن رغبتها في اتباع خطاي وتغبطنـي علـى قراري التحجب. مضت فترة طويلة قبل أن نلتقي، إلى أن اجتمعت بها مجددا في بيـت إحدى الصديقات، وكانت هي قد تحجبت وكنت أنا قد فككت حجـابي. عنـدما التقـت أنظارنا قلت لها: مبروك. بيلبقلك الحجاب. وبادرتني هي مضطرةً بعبارات المجاملـة نفسها، لكن في الاتجاه المعاكس. وحين سألتها الصديقات عن شعورها وهي متحجبـة وعن ردود فعل الناس، روت أن ردّ الفعل العفوي لدى ابنها البالغ من العمر 5 سنوات قوله لها: ماما لماذا فعلت هذا؟ شكلك ليس جميلا وأنا خائف منك. لقد ضحك الجميـع بالطبع، لكن تلك الحادثة أثرت فيّ، بسبب الأهمية التي أوليها لرأي الأطفـال كـونهم بريئين وصادقين، ولم يخربهم المجتمع بعد. ففطرة الولد وصدقه جعلاه يخـاف شـكل والدته الجديد، شاعراً بأن هذا الأمر غير طبيعي.

الحجاب والقرآن

من الأمور التي غالبا ما تواجه بها الفتاة السافرة المتدينين هي الآيات القرآنية المتعلقة بلباس المرأة. وتجاه الآيات الثلاث التي وردت في القرآن وفيها إشارة إلى لباس المرأة، عندي اقتناع بأن الفقهاء فسّروها بشكل قسري وأحادي لا يواكب العصر. فبالنسبة إليّ لا تزال مفاهيم الخمار والجلباب والحجاب كما وردت في الآيات الثلاث غير واضحة وتحتمل التأويل. وحتى لو كان تفسير هذه الآيات صحيحاً، فإن هذا الكلام موجه في الدرجة الأولى إلى مرحلة ومجتمع، كان من الأفضل فيهما للمرأة أن تتغطى حمايةً لها. أما اليوم فنحن في زمن ومجتمع مغايرين. لست ضدّ الاحتشام، لكن لا أعتقد أن غطاء الرأس يفيد في شيء في زمننا هذا. إن الله عندما أنزل هذه الآيات، أنزلها في مجتمع محدّد وزمن معيّن، وكانت في غاية الضرورة. لكن الله كان يعرف أيضا أن الأحوال ستتبدل بعد 1400 سنة، ولذلك أعطانا القدرة على التفكير والوصول إلى أحكام أكثر مواكبة لعصرنا. إن طرق التفسير القديمة ليست صالحة لكل زمان ومكان، ويجب إعادة النظر في الأحكام المستنبطة منها. أنا في النهاية لست ضليعة ومتبحرة في علوم الدين، لكني أعتقد أن علينا إعادة النظر في الكثير من المفاهيم والمظاهر الدينية التي أكل الدهر عليها وشرب. يقولون لنا إن تنظيف الأسنان بالمسواك هو من السنّة، لكن لو كان ثمة وجود للفرشاة ومعجون الأسنان في عصر الرسول، أما كان استخدمهما بدلا من المسواك!؟

ولمن يعتبر أن الحجاب يحدّ من النظرات الغريزية إلى المرأة ويمنع النظر إليها كأداة للمتعة، أقول إني لم أشعر قط، بالحجاب أو بدونه، أن هذا يعنيني. لأن إنسانيتي في الحالتين تمنعني من أن أكون أداة للمتعة الذكورية، ولأن شخصيتي في النهاية هي التي ستفرض احترامي على الآخرين. شخص مقرّب مني قال لي مرّة إنه عندما تعرف إليّ لم يشاهد الحجاب ! هذا الشخص أصبحت تربطني به اليوم علاقة حب، فقد ساعدني انفتاحه وتفهمه كثيرا في نزع الحجاب. والأهم أنه أحبّني وأنا كنت لما أزل متحجبة، وقد استمر حبه لي بدون حجاب.

الحب هو من أجمل الأمور التي يمكن أن تحدث للإنسان. واليوم، حتى لو لم تتكلل هذه العلاقة بالزواج، لن أتراجع عن قراري بنزع الحجاب. الحب يمكن أن يزول، لكن القرار الذي اتخذته مع نفسي، لن أتراجع عنه وسأكمل كما أنا. فهذا القرار فتح لي آفاقاً جديدة في العلاقة مع نفسي ومع المجتمع، من الصعب أن أتخلى عنها.

ورغم نزعي الحجاب، فإن موقفي من قانون منع الحجاب في المدارس الفرنسية يقوم على مبدأ أن لكل إنسان الحق في ممارسة ما يؤمن به ما دام لا يتناقض مع طبيعة المجتمع الذي يعيش فيه. فمن حق الفتاة المسلمة أن تمارس اقتناعاتها وتلتزم حجابها، لكن عليها أن لا تفرض على الآخرين أن يمتنعوا عن ممارسة ما يخالف قناعاتها في المدرسة أو في المجال العام. أنا عندي مشكلة مع بعض العائلات المسلمة المحافظة التي تعيش في أوروبا وتضع بناتها في مدارس مختلطة، ثم تمنعهن من المشاركة في الرحلات المختلطة مثلاً، الأمر الذي قد يعطل سير النظام في المدرسة.

في النهاية أنا ضدّ مبدأ أن يُفرض على المرأة، بقوة القانون أو العرف والعادات، وضع الحجاب أو نزعه. ولو أنّ أحدا حاول إجباري على نزع الحجاب لكنت تردّدت كثيرا في الإقدام على تنفيذ قراري الذي توصلت إليه بملء إرادتي.

أقول الآن إنه من المستحيل أن أتحجب من جديد. لا، لن أعود أبدا بعد اليوم إلى الحجاب أياً تكن الأزمة الوجودية التي يمكن أن تعترضني في المستقبل. ولن أظلم نفسي بعد اليوم ولن أحبس ذاتي هذا الحبس. ومع ذلك يجب أن أكون صادقة وأقول إن الحجاب أفادني وأعطاني الكثير. فقد ساعدني في أن أجد نفسي، ومنحني القوة لأكون على قدر حمل الرسالة التي كنت أتوهم أني أحملها، ومنحني قوة الدفاع عن خياراتي. وهو في النهاية أعطاني القوة لكي أنزعه.

وإذ أروي قصتي مع الحجاب، فإني أكنّ الاحترام إلى المتحجبات فهن أدرى بأحوالهن. وها أنا أشعر للمرة الأولى بالراحة. لم أعد في مرحلة ضياع وبحث عن الذات. لقد تصالحتُ مع نفسي. وأنا أملك حرية لم أكن أملكها قبلاً".